المأساة الفلسطينيّة:
أثير الأحلام وصناعة الإذعان

الدّكتور فيصل درّاج

ربّما يحبر التّاريخ عن حركات وطنيّة هزمت ذاتها قبل أن تهزم، لكنّه لم يُحبر عن حركة صالحت عدوّها الوطنيّ وجمّلت صورته و«الثّورة الفلسطينيّة» لا تكترث بأحكام التّاريخ، فتجمّل صورة العدوّ في اعتراف مردوج: اعتراف بشرعيّة دوله إسرائيل، واعتراف بحقّ الدّولة في احتلال الأراضي الفلسطينيّة. وبعطي الاعتراف اللّامعقول رعشات على صورته، تفصح عن نفسها في تصريحات عامرة بالضّحك الأسود. التّنسيق الأمني، التّعاون الاقتصادي، محاربة الإرهاب... وفي هذا يتمّ تبدير عقود طويلة من الكفاح، ويذهب القتال الفلسطيني إلى تأكيد العدوّ لا إلى نفيه. يحيل الواقع الرّاهن على مؤسّسه مهرومة، غير أنّه يعلن أولا عن: هزيمة الحلم الشّعبيّ العربيّ بتحرير فلسطين.

تثير المقايضة دهشة خانقة، لكن الدّهشة تقشع لحظة قراءة مسار المؤسّسة الفلسطينيّة. يقول إدوارد كار: «قبل أن تدرس التّاريخ ادرس المؤرّخ»[1]. ويمكن لمن لم تخنقه الدّهشة أن يقول: قبل دراسة اتفاق غزّة ـ أريحا ينبغي دراسة مسار المؤسّسة الّتي أنجزته. وكان المسار مسكوناً بالمفارقة: يريدأن يكون توريّاً بوسائل تقليديّة قديمة، وقوميّا عربيّاً في ممارسة قطريّة مغلقة، وشعبيّاً وهو يحتقر الشّعب ويمجّد النخبة الإداريّة، وتحرُّريّاً يطارد الفكر الحرّ وحقّ الاختلاف، وموحّداً للشعب الفلسطيني وفق مسطور يكرّس التّجزئة.... هزمت هذه التّناقضاتُ المشروع الفلسطينيّ قبل هزيمته المؤرّخة، فكان الاتفاق نقلاً للهزيمة من القوّة إلى الفعل لا أكثر. صدرت الهزيمة، ومنذ البدء، عن اختلاف المنظور بين المقاتل والقائد، يوحّد الأوّل بين قائد المؤسّسة والوطن، فالقائد رمزٌ وهويّة وانتماء، ويوحّد الثّاني بين ذاته والحقيقة والوطن، فتكون الجماهير المقاتلة أداة لقائد ـ حقيقة، يستعمل الجماهير ويختلف عنها. يردّ تماهي المؤسّسة بالحقيقة إلى تصوّر تقليديّ ـ استبداديّ يهزم كلّ فعل ينزع إلى التحرّر، فالتّماهي بالحقيقة يجعل القائد ـ الحقيقة أصلاً والوطن فرعاً فقير المعنى وكان صادق العظم صائباً، حين كتب قبل أكثر من عقدين السّطور التالية «إلاّ أنّه منذ البداية، كان واضحاً للمناضلين الأكثر وعياً، وتقدّماً في الحركة الفلسطينيّة، وللمثقّفين الأكثر راديكاليّة ممّن ارتبطوا، بصورة أو بأخرى، بالمقاومة أنّ الحركة برمّتها، كانت تبدو على كافّة المستويات (الاجتماعيّة والسّياسيّة والعسكريّة والإيديولوجيّة...) مُثقلة بأعباء الإرث الّذي حملته من أنماط الحياة العربيّة الماضية والحاضرة الّتي جعلت انهيار عام ١٩٦٧ محتّماً»[2]. كان العمل الوطني الفلسطيني يعلن، منذ عقدين، عن إرثه التّقليدي. وعوضاً عن أن يكون مسار العمل هو مسار تصحيحه الذّاتي، فإنّ العقدين اللّاحقين، ولأسباب متعدّدة، طوّرا الإرث التّقليدي، الأمر الّذي نقل الانهيار الممكن إلى مقام الهزيمة ـ الذّاتيّة الأكيدة.

جاء ميلاد المقاومة الفلسطينيّة، وبعد سنوات من الإحباط، بعنصرين جديدين هما: مبادرة الفلسطيني الذّاتيّة في التّعامل مع قضيّته، واعتماد الكفاح المسلّح عنواناً للمبادرة. واستطاعت هذه المبادرة، في شكليها، استنهاض الفلسطينيّ وجذبه، خاصّة أنّ الخطاب الشّعبويّ ـ التّحريضيّ جعل فلسطين في قبضة اليد، أو تكاد. كان ذلك الخطاب، كما وسائله، يلبّي حاجة لاجئ فلسطيني مقموع إلى استعادة وضعه الوطنيّ والإنسانيّ السويّ، إذ أنّ اللجوء فرض على اللّاجئ اغتراباً متعدّد الأبعاد، يمسّ الكرامة والوجود والقيم. فلقد أدّى اللّجوء إلى تبعثر الفلسطينيّ وزمانه، وجاء الكفاح المسلّح واعداً بتوحيد ما تفكّك، على مستوى الوجود الإنسانيّ والتّاريخ الوطنيّ.

---

(١) أ. كار ما هو التّاريخ، المؤسّسة العربيّة للنشر، بيروت، ١٩٧٦، ص. ٣٩

(٢) د. صادق جلال العظم: دراسة نقديّة لفكر المقاومة الفلسطينيّة، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣، ص: ٩

كان الفلسطيني المضطهد، في كفاحه المسلّح، يؤكّد ذاتيّة قُمعت وأُذِلّت، ويواجه مخلصاً عدوّاً أسطرته الهزائم العربيّة. ولم يكن يكتشف البندقيّة بقدر ما كان يعيد اكتشاف ذاته، والعدوّ الّذي يقاتله. وكان الاكتشاف المزدوج يرفع الفلسطيني، شيئاً فشيئاً، من وعي قَدَريّ بائس إلى وعي متمرّد غائم الملامح. ويقله من مدار الوعود والانتظار إلى تخوم أحلام يقرّرها الوعي المقاتل. إنّ النّزوع الشعبيّ الفلسطينيّ إلى التحرّر، بعد سنوات من التّهميش والخيبة، هو الّذي خلق الأطر السّياسيّة الفلسطينيّة، ومنح المسؤولين فيها قيمة، وفرض منظّمة التّحرير تجسيداً لإرادة وطنيّة جماعيّة. وكان من المفترض، أن تتطوّر المنظّمة وفقاً لتطوّر الإرادة الجماعيّة الّتي خلقتها، فيتطوّر الكمّ إلى كيف، ويتعمّق الانتماء الجماعيّ، وتتوسّع العلاقات الحواريّة، وترتقي المسؤوليّة الأخلاقيّة ـ الوطنيّة... غير أنّ «الإرث التّقليديّ»، وقد عزّزته شهوة السّلطة، فرض التّقليديّ نظراً وعملاً، فتقدّس الواحد وطُرِد المتعدّد، كما احُتِفل بالامتثال ونفي الاختلاف. وتمثّل «الإرث» بالفراق القديم والمتجدّد بين القائد السّياسي والعناصر المقاتلة من أجل التحرّر، إذ القائد لا يقود قوّاته إلى التحرّر إلّا إذا كانت مكبّلة، كأنّ التحرّر هدف مفارق لا علاقة له بالقوى الّتي تتطلّع إليه. يكون القائد في هذه المفارقة المأساويّة هو الحرّ الوحيد، وتُمنع الحرّيّة عن المقاتلين من أجل الهدف المفارق، أي يصبح إلغاء الإنسان الشّامل مقدّمة لتحريره، وهو أمر مستحيل. أنتج المنظور التّقليدي، ومنذ البدء، انقلاباً مزدوجاً: وضع المشروع التحرّري في مؤسّسة مستبدّة، ثمّ قام بقلب العلاقة بين المؤسّسة والإرادة الجماعيّة، فلم يعد المقاتلون يخلقون تمثيلهم السّياسيّ والإداري، بل أصبحت المؤسّسة تخلق مقاتلين على صورتها، يقبلون بالاستبداد، ويذهبون، بلا بصيرة، إلى معركة التحرّر. عاد المقاتل الفلسطينيّ، في هذا الانقلاب المزدوج، إلى اغترابه الأوّل، يصنعه الموضوع ولا يصنع الموضوع، لأنّ ذاته غائبة. ولم يخلق الفلسطينيّ المقاتل قيادته إلّا في لحظات قليلة، ذلك أنّ «الإرث التقليديّ»، الموزّع على السّلطات العربيّة، بما فيها قيادة منظّمة التّحرير، جعل المنظّمة جزءاً من الإرث والسّلطات. فكانت مرآة للممارسات السّلطويّة العربيّة التقليديّة لا أكثر. وربّما يكون الزّمن التّاريخيّ الّذي تطوّرت فيه منظّمة التّحرير، وهو زمن الإخفاق الرّسمي وتهميش الحركة الشعبيّة العربيّة، جعل ممارسات المنظّمة تكثيفاً شديداً للسلب السلطويّ العربي، في أكثر أشكاله بؤساً وتخلّفاً وعقماً.

توطّدت منظّمة التّحرير كياناً تقليديّاً مغلقاً بعد تحوّلها إلى سلطة بصيغة الجمع، سلطة اقتصاديّة وسياسيّة وفكريّة وإعلاميّة... ولم يكن التحوّل ممكناً من دون دعم السّلطات العربيّة، الأكثر انغلاقاً. وكانت المنظّمة، في هذا التحوّل، تفقد دلالتها الأولى، فلم تعد مرجعاً وطنيّاً ـ معنويّاً جماعيّاً بقدر ما أصبحت سلطة اقتصاديّة ـ معياريّة، تحدّد الوطنيّة بمعايير الخضوع والولاء والصّمت. فالموقف من القائد هو الموقف من الوطن، لأنّ القائد يصنع الوطن ولا يصنعه الوطن. وفي علاقات الاستبدال أحد الفدائيّ موقع «العامل المأجور» في ظرف مختلف، حيث يختفي «فائض القيمة» وراء هالة الوطن والكفاح المقدّس. دفع «فائض القيمة» المحتجب اللّامعنى إلى حدوده القصوى، حين أصبحت «المقاومة» مكاناً لعمل، والشّهادة حدثاً دامياً من حوادث العمل، والملصق إعلاناً إعلاميّاً يحجب التّجارة وراء الرّموز المقدّسة. عاشت المنظّمة دورة الحضور والإلغاء الذّاتي، فقد وحّدت الشّعب الفلسطينيّ وبدّدت الوحدة في علاقات تفقر الفكر وتحذف المبادرة وتشلّ الرّوح، واحتضنت بروع التحرّر وحاصرته بسطوة «المخصّص الشهري»، ورفعت علم فلسطين وجعلت من المؤسّسة العَلَم الوحيد.

مارست منظّمة التّحرير القيادة، إلى أن تمرّدت وغرقت في بيروقراطيّتها، فاختزلت معنى القيادة إلى بؤس الإدارة. وبين القيادة والإدارة مسافة نهايتُها الكارثة. فالقيادة تتضمّن الإدارة وتقبض عنها، تنظّم العلاقات وتراقب أوضاعها وتقتصد الطّاقة الإنسانيّة وتحترمها... لكنّها تحقّق هذا كلّه من وجهة نظر المصلحة الوطنيّة والأهداف الوطنيّة القريبة والبعيدة في آن، بشكل يوحّد بين الإداريّ والوطنيّ، ويجعل من الممارسات الإداريّة لحظة وطنيّة بامتياز. تنطلق القيادة من المجموع والمصلحة الجماعيّة، في حين تبدأ الإدارة وتنتهي بمصالح أفراد الإدارة، وتُخضع القضيّة الوطنيّة إلى مصالح مؤسّسة ترى في استمرار ذاتها قضيّة أولى. يطرح هذا الموضوع سؤال المسؤوليّة الأخلاقيّة ـ الوطنيّة، إذ أنّ قلب العلاقة بين المؤسّسة والوطن يجعل من الأخلاق سؤالاً سياسيّاً، ومن السّياسة قضيّة أخلاقيّة. ولهذا، أصبح سؤال الأخلاق، في منظّمة التّحرير، سؤالاً أساسياً، لأنّ إفساد الأفراد، رشوةً وارتزاقاً وتكسّباً، يؤدّي إلى إفساد القضيّة الوطنيّة وفسادها. ويمكن الفصل، منطقيّاً، بين عدالة القضيّة وفساد المؤسّسة، غير أنّ العدالة لا توجد إلّا بوجود الأطراف المدافعة عنها، فإن كانت الأطراف ظالمة ضاعت العدالة في أعطاف الجلّاد المدافع عنها.

سار النّضال الفلسطينيّ، في إدارة منظّمة التّحرير، في اتّجاهين متعارضين، اتّجاه شعبيّ يتطلّع إلى الوطن واستعادة الجوهر المفقود، واتجاه إداريّ ـ سلطويّ يرعى المؤسّسة ويدافع عنها. ولقد ساعد الشّتات الفلسطيني ومطاردة المقاتل، بأدوات إسرائيليّة تارة وبأدوات سلطويّة عربيّة تارة أخرى، على علاقة ملتبسة بين الاتّجاهين، أضعف الشعبيّ وحاصره وعزّز الإداريّ الفلسطينيّ ووطّد مواقعه،

حتّى استعاد الشّعب الفلسطيني مآل ثورة ١٩٣٦ من حديد، حيث يُقاتل من لا يقود ويقود من لم يقاتل. وهذه القسمة، كما ممارسات أخرى، تُدْرج التّقليديّ الفلسطينيّ في الممارسات التّقليديّة العربيّة المسيطرة، وتستولد الاعتراف، عربيّاً وفلسطينيّاً. ففي الحالين، يتحوّل البشر إلى أشياء وكفاح البشر إلى ملكيّة حاصّة.

ومثلما يطرح المسار الفلسطينيّ سؤال الأخلاق، فإنّه يطرح سؤال معنى الإنسان في ممارسات لاأخلاقيّة. فمن عتمة المفارقة أن تكون كلمة السّياسة، في مشتقّاتها المتعدّدة، مسيطرة وشائعة الانتشار، من دون أن يكون لها وجود، بالمعنى الحقيقيّ للكلمة. تستلزم السّياسة الاعتراف المتبادل بين حملة الأفراد الّذين يمارسون السّياسة، أي أنّ السّياسة لا وجود لها إلّا بوجود ذوات إنسانيّة حرّة، تعرف معنى السّياسة وتحدّد أهدافها وتساهم في صياغة وجوهها المختلفة. بهذا المعنى تكون السّياسة فعلاً حديثاً، بالمعنى التّاريخي، يشير إلى جماعات لا إلى فرد أو أفراد. وهذا ما يميّز الطّقس السّلطويّ من السّياسة الحديثة، فالطّقس مرجعه فرد لا يعترف بما هو خارجه، والسّياسة اعتراف جماعيّ متبادل، يُنكر الفرد ـ المركز. إنّ السّياسة، بالمعنى النّظريّ الحديث، فعل جماعيّ مشترك، يتحرّر فيه الفرد من العقبات الخارجيّة والكوابح الداخليّة الّتي ورثها من ماضٍ لا يسمح بالسّياسة. ولقد سارت «السّياسة الفلسطينيّة» في مسار بكر السّياسة، لأنّه ينكر الفعل الجماعي ولا يعترف بالذّات الحرّة، بل إنّ هذه السّياسة قمعت وهمّشت كلّ مبادرة تطالب بالحرّيّة والاعتراف بالذّات الإنسانيّة. وهذا الواقع يفسّر غياب النّقد وتكثر التّجريد والمجرّدات، حيث تدور اللّغة المسيطرة سياسيّاً وثقافيّاً وأدبيّاً حول كلمات لا تعيين لها. فالعدوّ قائم، كما الوطن والأرض والفدائيّ والشّهيد، في منظور لا يعرف المشخّص ولا يكترث بالتّاريخ. ووراء هذا التّحريد كانت المؤسّسة الفلسطينيّة تحجب ممارسات، تتحدّث عن هدف بعيد وموعود، وتغفل عن حاضر معقّد هو حاضر المؤسّسة، الّتي تلغي ما تشاء، وصولاً إلى الإلغاء ـ الذاتيّ.

يؤكّد الاستبداد بداهة مسيطرة، قوامها أولويّة المصلحة المؤسّساتيّة على المصلحة الوطنيّة، وعندها تتكشّف المؤسّسة الفلسطينيّة وجهاً من وجوه الواقع العربيّ، الّذي لا يُفسَّر بمصطلح «الاستبداد الشرقيّ» الاستشراقي، بل بمصطلح آخر هو: التبعيّة. تحفظ المؤسّسة المستبدّة مصالحها بإلغاء الشّعب ومصالحه، وتأكيد مسافة ثابتة بين المؤسّسة والمؤسّسات العربيّة الأخرى، بحيث تتناتج منفصلة يوحّدها القمع لا الانتماء القوميّ العربيّ الّذي تدّعيه. يشير القمع، إذن، إلى سلطة سياسيّة محدّدة، وإلى إيديولوجيا سلطويّة محايثة له هي: القطريّة، الّتي تستجيب إلى المصالح الاستعماريّة، الّتي قسّمت العالم العربي ومكّنت القطريّة في السّلطات القطريّة المتواترة.

ومثلما أخذت المؤسّسة الفلسطينيّة المسيطرة بالاستبداد شكلاً سياسيّاً، فإنّها أخذت بدورها بالإيديولوجيا المحايثة له. تستظهر الإيديولوجيا الفلسطينيّة في شعار: «القرار الفلسطيني المستقلّ»، شعاراً يفقد جوهره ظاهره، لأنّه ينفصل عن السّلطات العربيّة لعبة، ويعود إليها ممارسة. فكلّ المؤسّسات تمارس الانفصال مسوّغاً بتعبير الاستقلال وباسم خصوصيّات مختلفة، تُردّ إلى الرّعبات السّلطويّة لا إلى الوقائع المشخّصة. وعلى هذا، فإنّ الاستقلاليّة الفلسطينيّة الوهميّة مرآة حقيقيّة للسلطات القطريّة العربيّة القائمة. وبما أنّ لكلّ «استقلاليّة» لعتها، يكون على «القرار الفلسطيني المستقلّ» أن يتيح أدواته لغة في: الرّمز الفلسطينيّ، الصوت الفلسطينيّ، الكتابة الفلسطينيّة، إلى أن يصل إلى «أحفاد كنعان»، الّذين هم مرآة مصقولة لـ «أبناء مصر الخالدة». تحمل اللّغة القطريّة التّوحيد والانفصال معاً، توحّد السّلطويّ الفلسطينيّ بالسّلطويّ العربي، وتفصل بين الشّعب الفلسطينيّ والشّعب العربيّ، فيكون «القرار الفلسطينيّ المستقلّ» مشتقّاً لـ «القرار المصري المستقلّ» وخيار القرار الأوّل تابعاً هزيلاً للقرار السّاداتيّ.

مارس أنور السّادات، بعد معاهدة كامب ديفيد، القطريّة سطراً وعملاً، وتخلّى عن الموروث القوميّ النّاصريّ، واستبدت لعة قطريّة شعارها. «مصر الخالدة»، إذ يحجب عمق التّاريخ سياسة قطريّة صغيرة. يسوّغ الشّعار الكبير الخيار السّياسيّ، لأنّ انتماء الرّئيس إلى بلد صفته الخلود يمنع عنه الخطأ، ويقيم فصلاً بين «شعب مصريّ خالد» و«شعب عربيّ عابر». تبحث السّلطة عن شرعيّة غائبة، تستولدها من تلفيق إيديولوجي يمزج الفرعونيّة بتعاليم دينيّة مزوّرة. يركن الرّئيس إلى شكلانيّة دينيّة وشوفينيّة بائسة، تعوّض تصغير مصر الحقيقيّ بتعظيم وهميّ لها. واقتداء بالنّموذج السّاداتي، اختطّت المؤسّسة الفلسطينيّة دربها وخلقت الخطاب الموائم له. فالرّئيس المصري يبني خطابه على ثنائية مزوّرة هي التّعظيم والإلغاء، تعظيم ذات مصر وإلغاء الذّات العربيّة، أو تعظيم الذّات القطريّة تمهيداً لإلغاء الذّات القوميّة العربيّة، اعتماداً على المسافة القائمة بين «الخالد» و«العابر». بينما تقيم المؤسّسة الفلسطينيّة قولها على ثنائية: التّجاوز والنّبذ. يظهر تجاوز العربيّ في «الصّوت الفلسطينيّ» المحصّن بـ «البندقيّة»، ويبرز النّبذ في «يا وحدنا» الشهيرة، الّتي تركن العربيّ جانباً، لأنّه خذل الشّعب الفلسطينيّ وقتاله. ينفصل الفلسطينيّ عن العربيّ، في لحظة التّجاوز، بسبب البنادق والأشبال والزّهرات و الشهداء والعمليّات الفدائيّة، أي بسبب أفعال لا يستطيع العربي العاديّ أن يقوم بها، ويقوم بها الفلسطينيّ وحيداً. ويستعاد الانفصال، في لحظة النّبذ، لأنّ العربي

ترك الفلسطينيّ وحيدا لمصيره يحفر القول، في الحالين، هوّة بين العربيّ والفلسطينيّ، ويساوي بين الرّسميّ والشعبيّ. يصبح العربيّ المجرّد عدوّاً جديداً يُضاف إلى عدوّ قديم. ويعدو الفلسطينيّ محاصراً بعدوّين، وعليه أن يبحث عن حلاصه الفردي فوق أقاليم لا مراجع لها.

يتكشّف، في هذه الحدود، معنى تحرّر المؤسّسة الفلسطينيّة من أيّة مراجع عربيّة، شعبيّة كانت أو ثقافيّة وتاريخيّة، أي يتكشّف بحثها الدّائب عن كلّ ما يحفظ المؤسّسة ويحافظ على استمرارها. ولو أدّى ذلك، ترويرا، إلى مساواه العربيّ بالصهيونيّ، أو بتفضيل الثّاني على الأوّل. تحقّق المؤسّسة، في هذا الحيار، مصلحتها الذاتيّه الضيّقة، وتحقّق أيضاً مصلحة السّلطات القطريّة العربيّة، لأنّ «استقلال القرار» المزعوم، يحرّر السّلطات من أيّ التزام بالقضيّة الفلسطينيّة. يتناتج التّلفيق في الإيديولوحيا القطريّة الفلسطينيّة، فهي تنتج أولاً القرار المستقلّ، وتضيف إليه مساواة مزوّرة بين العربيّ والصهيونيّ، وتكون المساواة مبرّراً كافياً للاعتراف بالصّهيونيّ، طالما أنّ العربيّ قد حاصر الفلسطينيّ وحدله. وعلى هذا، فإنّ القول بـ «قرار فلسطينيّ مستقلّ» مقدّمة صروريّة لإنجاز الاستسلام الفلسطينيّ. أو بشكل آحر: كان تحوّل المؤسّسة الفلسطينيّة إلى مؤسّسة قطريّة شرطاً لاعتراف القطريّات العربيّة بها، وكان شرط استمرارها إنتاج الاثار السّياسيّة الملارمة للقطريّة، والّتي تتمثّل في الاندراج في التّبعيّة وتأكيدها واعتراف غزّة ـ أريحا صورة للاندراج في التّبعيّة وتأكيد لها، لأنّه يصون «هدوء منطقة الشّرق الأوسط» ويمهّد لخلق منطقة شرق ـ أوسطيّة متحانسة، تصوعها القوّة الحسديّة العربيّة «والعبقريّة الفكريّة اليهوديّة». تعطي منظّمة التّحرير، في تحوّلاتها، نقائض مبادئ بدايتها، تعيد الفلسطيني إلى اعترابه، وتنفي القوميّ وتثبّت القطريّ.

وتطرح ثنائية الاسبداد/القطريّة موضوع الهويّة الفلسطينيّة اليوم، بعد اتفاق غزّة ـ أريحا، وربّما قبله أيضاً. فقد طمح الشّعب الفلسطينيّ إلى هويّة عنوانها منظّمة التّحرير، تجسّد التحرّري والقوميّ والتّوحيدي والمستقبليّ. وتهاوى التّحسيد المرعوب في ممارسات بائسة متعدّدة، آحرها تحريء الشّعب الفلسطينيّ وتسويغ وحود العدوّ، بل إسعافه في تحقيق طموحاته. ولعبه التّسيق الأمني والاقتصادي و«شحب الإرهاب» آية على مساعفة العدوّ والخذلان الذاتيّ والتحلّي عن البديهيّات الوطنيّة. فوجود الاحتلال هو وجود المقاومة الّتي ترفض الاحتلال، بعيداً عن الحسبان الفقير، لأنّ الاعتراف بالاحتلال تفكيك للذات الّتي تعترف به، وتدمير لهويّتها تتخلّى منظّمة التّحرير عن الهويّة الوطنيّة الفلسطينيّة لأنّها تقطع مع التّاريخ الّذي أنتج الهويّة تقطع مع التّاريخ الصّهيونيّ الّذي اغتصب الوجود الفلسطينيّ، فترى الحاضر الإسرائيلي لحظة منطقيّة لا تاريخ لها، تردّ إلى «التّعاون والسّلام». وتقطع مع التّاريخ الفلسطيني فيكون التّاريخ لقاء منظّمة التّحرير مع قادة إسرائيل، أي أنّها تعتبر التّاريخ السّابق خاطئاً أو لا وجود له. وفي احتلال الذّاكرة التاريخيّة تتماثل اللّغة في مأساويّة طليقة، لأنّ أحد الطّرفين احتفظ بلغته الصهيونيّة، وأضاع الاحر لغته فالتقط لغة الآخر واكتفى بها. إنّ شجب مقاومة الاحتلال، وهو ما فعلته منظّمة التحرير، مرآة للغة هجينة متصهينة، تساوي، بسبب تصهينها، بين المقاومة والإرهاب. بمعنى آخر: إنّ تماثل اللّغة بين غالب ومغلوب يكشف عن حضور هويّة وغياب الهويّة الّتي كانت تناقضها.

جاء التّدمير الطوعيّ للهويّة الذاتيّة من سياسة وطنيّة احتزلت إلى إدارة مؤسّسيّه، والسّياسة تتعامل بالنّصر والهزيمة وبالصّحيح والخاطئ، في حين تأحذ الإدارة بمعايير الرّبح والخسارة، والتّجارة تتعامل مع أيّام لا تاريخ لها، لأنّ تاريخها الوحيد هو الرّبح والخسارة يختفي مفهوم الهويّة الوطنيّة في فضاء الإدارة، دلك أنّه يردّ إلى حاضر لا يمكن عزله عن الماضي. وحاضر الهويّة الوطنيّة، بالمعنى النّظريّ، هو حاضر صراعها مع عدوّ له هويّة مختلفة، وهذا الحاضر يأحذ شكله من ماضٍ أفضى إليه. وعلى هذا، فإنّ الهويّة الفلسطينيّة تردّ إلى مرجع مزدوج، الحاضر كلحظة عربيّة ـ فلسطينيّة تحدّد هويّة العربيّ بمستوى صراعه مع العدوّ الامرياليّ ـ الصّهيونيّ، والماضي كمرجع تاريخيّ وحّد العربيّ والفلسطينيّ ـ العربيّ في لحظات الطّموح والتحرّر والهزيمة والبحث المستمرّ عن أفق تحرّري تتحدّد هويّة المقْتَلَع من أرضه بكفاحه المستمرّ لاستعادة الأرض المغتصبة، أي أنّ الهويّة، بالمعنى التّاريخيّ، لا تحيل على الأرض والجغرافيا والذّكريات، بل على صراع الإنسان المستمرّ من أجل وجود سويّ، خصائصه الحريّة والكرامة الوطنيّة. ولدلك، فإنّ الانتساب إلى فلسطين انتساب إلى الوقائع الوطنيّة الفلسطينيّة، بدءاً بهبّة البراق وثورة عام ١٩٣٦ وصولاً إلى محازر صبرا وشاتيلا وشهداء الانتفاضة. وهو انتساب لا يستقيم إلاّ بالاحتفاظ بداكرة تاريخيّة، لا يُنْسيها الانبهار العربيّ الرّاهن، اسم العدوّ الذي قام بمحارر دير ياسين وكفرقاسم وعين الزّيتون.

يصدر سؤال الهويّة الوطنيّة عن الدّاهة الإنسانيّة الّتي راكمتها الشّعوب المضطَهدة والدّاهة تعترف بطرف يسمح بالنّصر وبظروف تمنع النّصر وتُكاثر الهزائم غير أنّ الدّاهة السّليمة لا تتعرّف على مهروم يلعي هويّته، ويزوّر التّاريخ الّذي تصارعت فيه هويّتان مختلفتان، حتّى بدا الصّهيونيّ صديقاً مرغوباً والعربي هامشاً معموراً بالخطيئة والسّلب

أدركت النّحبة الوطنيّة الفلسطينيّة، منذ العشرينات، أن تحرّر فلسطين لا ينفصل عن تحرّر العالم العربي، كما وعت النّحبة الوطنيّة

العربيّة أنّ تحرير العالم العربيّ لا يتحقّق من دون هزيمة المشروع الصهيونيّ. وأكّدت منظّمة التّحرير، في ألوانها المختلفة، البعد العربيّ للقضيّة الفلسطينيّة. يقول الميثاق الوطني الفلسطيني: «إنّ فلسطين جزء لا يتجزّأ من الوطن العربي، والشّعب الفلسطيني جزء لا يتجزّأ من الأمّة العربيّة». تنسف لغة اتّفاق غزّة - أريحا الجزء والكلّ معاً، لأنّ الاتّفاق إعلان عن هزيمة الأمّة العربيّة، ولأنّه أيضاً مرحلة نوعيّة هدفها تأكيد الهزيمة وتأبيدها. وهو هدف كانت المنظّمة تناهضه قبل أن تدخل مرحلة الفساد والانحلال. يقول خالد الحسن، في زمن مضى: «والتّحرير بالنّسبة إلى فتح، ليس مجرّد تحرير فلسطين، بل إنّ له معنى بعيداً عن الأنانيّة القطريّة ونقيضاً لها، وهو تحرير الأمّة العربيّة من كلّ أنواع الاحتلال العسكريّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ. إنّنا كأمّة لم تبدأ إلّا مؤخّراً في الخروج البطيء من زمن الانحطاط الفكريّ الّذي حاق بها في الـ ٤٠ سنة الماضية، والّذي بسببه نعيش اليوم حالة انعدام وزن حضاريّ وفكريّ، وإلّا لما كان من الممكن أن تُسرق فلسطين ويشرّد أهلها بالإرهاب الصّهيونيّ»[٣]. يخبر قول خالد الحسن عن مدى الانحلال - الذاتيّ لمنظّمة التّحرير، الّذي أعاد خلقها لتكون نقيضاً كاملاً لما بدأته ولما اعتبرته هدفاً. فالاتفاق الّذي أنجزته يشير في بؤسه إلى فئة لا إلى قطر. ويبرّر الاحتلال العسكريّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ، ويؤكّد احتلال فلسطين، ويخلع عن المشروع الصّهيوني صفة الإرهاب ويلبسها إلى المقاومة الوطنيّة الفلسطينيّة.

يفرض علينا انهيار ذاكرة منظّمة التّحرير التّذكير بثبات واتّساق ووضوح الذّاكرة الصّهيونيّة، الّتي تتابع سياساتها الخاصّة بالسّيطرة على العالم العربي وتجميع يهود العالم في فلسطين والإلغاء النّظريّ والعمليّ للكيانيّة الفلسطينيّة، بل إنّ هذه الذّاكرة، وهي يقظة متجدّدة، لا تتحدّث عن سوريّين وفلسطينيّين ومصريين، إنّما تتحدّث دائماً عن العرب، لا بمعنى القوميّة المجاورة، بل بمعنى النّقيض الحضاريّ الشّامل. يوحّد الكيان الصّهيونيّ العرب، بلا تمييز، لأنّه يودّ السّيطرة على العرب جميعا، ويميّز العرب بعضهم عن بعض، كي يقبلوا السّيطرة ويعترفوا بها. ومنظّمة التّحرير، الّتي كان عليها أن تواجه الانفصال العربي، تأخذ به وتغذّيه، أي تسهم في تسريع الانهيار العربيّ الّذي مهّد لانهيارها، ولانتقالها من موقع المناهض للصّهيونيّة إلى موقع المعترف بها والمبشّر بلغتها ولعلّ من مأساة منظّمة التّحرير ألّا تواجه الانهيار العربي، ولا حتّى توازيه، بل تتجاوزه وتتقدّم عليه. فإذا كان خالد الحسن يتحدّث عن تحرير الأمّة في تحرير فلسطين، فإنّ المسار العربيّ المنهار، والمسار الفلسطينيّ المحايث له وأداً، بثبات لا نقصان فيه، التحريرين معاً. ففي البدء كان الحديث يدور حول الصّراع العربي - الامبرياليّ، ثمّ تحوّل إلى صراع عربيّ - صهيونيّ، فصراع عربيّ - إسرائيليّ، فصراع فلسطينيّ - صهيونيّ، فصراع فلسطينيّ - إسرائيليّ. . . إلى أن انتهى إلى انتصار الصّهيوني ونُصْرته عربيّاً وفلسطينيّاً.

ولعلّ كلّ فصل بين العربيّ والفلسطينيّ لا معنى له، فالفصل بينهما هزيمة، والمفصول بينهما مهزومان، والتصلّب الصّهيونيّ حافظ على ثباته، والمتماسك العربيّ تحوّل إلى أثير، وانتصر الحلم الصّهيونيّ، حتّى الآن، وتداعى حلم التحرّر العربيّ وحلم الفلسطينيّ - اللّاجئ بالعودة إلى الوطن. يقول الكاتب الإسرائيلي عاموس عوز: «يشكّل اتفاق غزّة - أريحا الانتصار التّاريخي الثّاني للصهيونيّة». وكي ندرك معنى الانتصار الثّاني ينبغي استعادة عناصر الانتصار الأوّل وهي: إخراج الفلسطينيّين من أرضهم، دحر الأنظمة العربيّة، الولادة الرّسميّة للدولة الصّهيونيّة. ويتمّ في الانتصار الثّاني إخراج الفلسطينيّين من قضيّتهم، ففي الانتصار الأوّل فقد الفلسطينيّون الأرض واحتفظوا بالقضيّة، وفي الثّاني يفقدون قضيّتهم ويحتفظون بالخسارة. وتقع على المنظّمة المدحورة القسمة ذاتها، تندحر وتحتفظ بالرّفض في اللّحظة الأولى، وتظلّ مدحورة وتخسر الرّفض في اللّحظة الثّانية، ويأخذ الإذعان الجديد مكان الرّفض القديم. وتدخل دولة إسرائيل ولادة جديدة، فقد ولدت من هزائم العرب، واحتفظت بأسوارها مغلقة، حتّى هزم العرب أنفسهم من جديد، ففتحت القلعة أبوابها، لأن ظلّ المحارب العربيّ لا مكان له.

يحكي فلسطيني عن تجربة المخيّم والمنفى كما تتراءى له مناماً فيقول: «وبالمنام بسّ، وصلنا على فلسطين، ما شفت إلّا كلّ أهالي المخيّم يتفرّقوا وصار كلّ واحد يروح على بلده. . .»[٤]. ويتابع فلسطيني المخيّم ليرى أهل المخيّم عادوا إلى حيفا ويافا. . .، وحملوا معهم ألفة المخيّم التّعيسة. وإذا كان الحلم، في زمن مضى، يشير إلى واقع قادم تنهض فيه فلسطين عربيّة بأهلها، فإنّ اتفاق غزّة - أريحا، كما الأدوات البشريّة الّتي أنجزته، تقذف بالحلم المرغوب إلى زنازين الكابوس كان الحلم وعداً فأمسى، في زمن الخيبة، تعويضاً، كأنّ القتال الفلسطينيّ لم يكن له وجود، وكأنّ أحلام البشر حفنة من تراب. في قصيدة بعنوان: «عودة أنطونيو ماشادو» يقول رافاييل ألبرتي:

من يغلق الذّاكرة على جريمة بهذه الأبعاد

ومن يغلق القلب على حِداد بالغ السّواد؟[٥].

(٣) د. أحمد الدّيك. مجمع الانتفاضة دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣، ص ٥٠.

(٤) محمّد ملص المنام، دار الآداب، ١٩٩١، ص ١٤٤

(٥) rafael alberti: qui a dit que nous étions morts? E.F.R. Paris, 1964, p: 107